فصل

في الحوادث التي أدّت الى مجازر سنة ١٨٦٠

قلنا في الفصل السابق ان مبدأ الحاكمين نقرر نهائيًّا بعد حوادث سنة ١٨٤٥ بما كانت بلاد الموارنة خاصة بهم لا يسكنها الدروز صار قائمقام النصارى لا سيادة لهُ الاَّ عَلَى ابناءِ جنسهِ ولكن قائمقام الدروز كان يحكم القرى الاخرى من جبل لبنان وفيها الدروز والنصارى مختلطين من عهد نشأة الطائفة الدرزيَّة · ولذلك عظم شأن الدروز وتمكنت سيادتهم وصار المعاونون الذين تعينوا من النصارى لمساعدة حكام الدروز كلا شيء يبصرون ولا يأمرون و يرون استبداد الدروز في بني طائفتهم ولا يقدرون عَلَى اصلاح الامور · واشتدت جرأة الدروز إِلَى حد انهم صاروا ينازعون النصارى في كل املاكهم و يضع كل واحدٍ منهم يدهُ عَلَى املاك جارهِ وجعل بعض مشايخهم يغزون القرى ألَّتي يسكنها النصارى حينًا بعد حين فيسوقون الانعام والخيرات بين يديهم و يسومون الرجال عذابًا مرًّا ولا حرج عليهم في ما يفعلون ورأى الاتراك ان كل حيلهم لم تنفع وان الجبل ظلَّ لاهلهِ ولم يملكوهُ فعادوا إِلَى نغمتهم الاولى واختاروا الامير بشير ابي اللمع آلةً لدس الدسائس لانهُ كان مارونيًّا فدار هٰذَا الامير واعوانهُ يكتبون

العرائض في حق القائمقام النصراني و يعرفلون مساعيهِ مع انهُ كان حكيمًا عادلاً و يعملون على نكايتهِ و يتعرَّضون لعمالهِ وجباة الاموال في الطرق ويتخطفون الحاصلات والماشية من اهل القرى فشكاهم الحاكم إِلَى الوالي وطلب اليهِ المدد العسكري مرارًا وتكرارًا فلم يلقَ طلبهُ قبولاً ولم يرضَ الاتراك بمنع الاعتداء وقمع الثورة لان العيش لا يلذُّ لهم ولبنان هادئ مستريح من عناء الحروب الَّا اذا كان حكامهُ من الاتراك واهلهُ افقر الناس واذلهم بين يدي هؤُلاء ٱلحكام

وتمادى الدروز في اظهار القوة والافتخار بالنصر ولم تردهم الحكومة عن العسف والجور واذلال اعدائهم وكان اشهرهم في هذه الامور سعيد بك جنبلاط فان هٰذَا العميد تطرَّف وافرط في ظلم النصارى الذين كانوا في قبضتهِ وصيَّر نفسهُ اغنى اهل الشام بما كان ينهبهُ يومًا بعد يوم من املاكهم حتى انهُ استخدم اناسًا لحفر الاخنام كانوا لا يبرحون بيتهُ ومهنتهم الوحيدة حفر اخنام للذين يريد سعيد بك اغتصاب اموالهم واطيانهم وكتابة الاوراق المزوَّرة ببيع تلك الاطيان اليهِ وانتقالها إِلَى يدهِ وتسجيلها في محاكم الجبل ولو ان احد هؤُلاء المظلومين عارضهُ في امرٍ لما لقي غير الذل والعذاب الكثير فقد كان هٰذَا الطاغية يرشي والي بيروت فيعرض التركي عن سماع الذين يشكون اليهِ فعالهُ واذا عاد المشتكي إِلَى بيتهِ وجد رجال سعيد بك بانتظارهِ فيوسعونهُ ضربًا مبرحًا وقد يعدمونهُ الحياة ولا يجسر اقاربهُ عَلَى المطالبة بدمهِ. وقد زاد في حقة هٰذَا الظالم تقرُّب فنصل الانكليز منهُ ومودَّتهُ وكان الانكليز يرون ان الموارنة اعوان فرنسا يعاونونها

على مدّ نفوذها و بلوغ مرامها فرأَوا ان يستميلوا الدروز اليهم و يجعلوهم حزباً لهم وكان سعيد بك جنبلاط اعلاهم مقاماً واكثرهم وجاهةً وهم اشهر الناس في اتباع رأْي اكابرهم فأَظهروا لهُ ما تقدم من الملاطفة حتى صيَّروهُ واهل طائفتهِ من حزبهم وكانوا اذا سمعوا عنهُ امراً يعرضون و يؤْثرون بقاء طائفة الدروز على ولائهم على اعانة ضعيف من الناس ظلمهُ سعيد بك او احد اعوانهِ . ولهذا استخفَّ الدروز بالنصارى وعمَّ الاعتقاد بينهم ان الانكليز حلفاء الدروز واقاربهم وثبت هٰذَا الاعتقاد عندهم من تصرُّف بطريرك الموارنة وقسسهم لانهم كانوا يعتبرون الانكليز هراطقة وكفاراً مثل الدروز و يحرّمون القرب منهم او الاختلاط بهم فظنَّ الدروز ان الانكليز اقرب اليهم منهم إِلَى الموارنة وزادت جراءتهم واستخفافهم بنصارى لبنان وهكذا عادت الاحقاد وكان السبب فيها هذه المرَّة ايضاً دسائس الاتراك وبساطة الموارنة وحب الدروز للحرب والغنيمة .

ومع كل هٰذَا الضغط وهذه الاسباب لم يتأَخر النصارى في جبل لبنان وضواحيهِ عن النموّ والارتقاء وكانت اشهر مدائن النصارى في لبنان دير القمر وزحلة . وفي جنوبيهِ من بلاد الشام حاصبيَّا وراشيَّا وسنأْتي على طرفٍ من تاريخ هذه المدائن عند ذكر المذابح ٱلَّتِي حصلت فِي كلٍّ منها ولكن يكفي ان يقال هنا ان دير القمر كانت في ما سبق من الزمان من املاك الدروز والذين فيها من النصارى اجراء لمشايخ بيت معن ومن عقبهم من اهل هذه الطائفة وآخر الذين تولوا امورها بيت ابي نكد من مشاهير الدروز فاستقلت منهم وطردتهم منها

كما تقدم واثرى النصارى فيها حتى لم تعد ترى ذكرًا للدروز فيها الَّا اذا كانوا من الحطابين والخادمين وكان النصارى يفتخرون بقوَّتهم وثروتهم ويثيرون بذلك طمع الدروز وحقدهم في كل حين. وكان احد آل ابي نكد وهو الشيخ بشير ابي نكد من اعظم اعيان الدروز فأَراد يومًا ان يبني لهُ قصرًا في ضواحي دير القمر ومانعهُ النصارى في ذلك ممانعةً كبرى حتى انهم ابلغوهُ انهم يخربون لهُ ما يبنيهِ يومًا بعد يوم اذا هو اراد القرب من بلدتهم بعد ان طردت طائفتهُ منها فاضطرَّ إِلَى الرجوع عن عزمهِ ولكنهُ اضمر الشرّ للنصارى وقال عبارة تروى عنهُ إِلَى هٰذَا اليوم كانت نبوَّة بمستقبل الحوادث وهي « اني سوف ابني اساس بيتي برؤُوس هؤُلاء النصارى وعظامهم » وقد أَتمَّ ذلك بالفعل من بعد مجازر سنة ١٨٦٠

واما زحلة فنمت في تلك المدة نموًّا هائلاً اوجب قلق الدروز وحسابهم لانها كانت امنع مراكز النصارى لا يدخلها غيرهم وصار عدد سكانها ١٢ الف نسمة لا يقل عدد المحاربين منهم عن ثلثة آلاف بطل واكثرهم من طائفة الروم الكاثوليك . واتسعت تجارة اهل زحلة وامتدَّ نفوذهم الى حد انهم صيَّروا البقاع في قبضتهم ومنعوا عنهُ تعدي الدروز وغزوات مشايخهم فاشتدَّ الغيظ بالدروز واشتدَّ الميل فيهم إِلَى الانتقام . وكثرت المخابرة بين زحلة ودير القمر في شأْن الاتحاد عَلَى الدروز وحماية النصارى حين اللزوم فحفظ الدروز كل هٰذَا وزاد ميلهم إِلَى الضرب والحرب

واما حاصبيَّا فكان عدد النصارى فيها لا يقل عن ٦ آلاف

نسمة اكثرهم من الروم الارثوذكس و بينهم حوالي ١٥٠٠ نسمة من الدروز . هؤلاء ايضاً اشتدّ العداء بينهم لما تقدم من امور الحرب والخيانة وكان حكام هذه المدينة من آل شهاب الذين حافظوا عَلَى الاسلام فراوا من الدروز ميلاً إِلَى الاستقلال عن سلطتهم وتعرُّضاً كثيراً لاوامرهم وصاروا يستعينون بالنصارى عليهم و بدأ الفريقان يستعدَّان لاعادة الكرّ والفرّ . ومثل هٰذَا يقال في راشيا وما يليها

هٰذَا بعض الشيء عن المدن ٱلَّتي حصلت فيها المجازر غير دمشق الشام وسنذكر تاريخها بالاختصار . واما بقيَّة الاسباب ٱلَّتي حركت الناس عَلَى العود إِلَى القتال فأشهرها دسائس الحكومة التركيَّة وقد اسهبنا في وصفها في الفصول الماضية وكان الدروز قد طمعوا في الحكومة وجاهروا بعصيان اوامرها لانهم راوا انها تعينهم عَلَى النصارى وقت الحرب وتتفق معهم سرًّا وتتزلف لرجالهم حتى يقوموا عَلَى جيرانهم فانتزعت كل مهابةٍ لها من قلوبهم وصار مشايخهم المكلفون بجمع الاموال الاميريَّة يجمعونها ويأكلونها واكابرهم لا يدفعون المال المطلوب منهم إِلَى القائمقام وكلما طالبهم الوالي بالمال حاولوهُ وماطلوهُ حتى لم يعد لهُ سلطة عليهم . ولما انتشبت الحرب بين روسيا والدولة التركيَّة تظاهر الدروز عَلَى عادتهم بحب الانتصار للمسلمين وعرض مشايخهم على الدولة ان تنظم جيشاً من ابطالهم لمحاربة الروس ففرحت الحكومة التركيَّة بهذا الامر وارسلت لهم مائة وخمسين الف ليرا عثمانيَّة لتنفق على هٰذَا الجيش فأخذ المشايخ المال وجمعوا الرجال ولكنهم ظلوا في مواضعهم لا يأتون غير الكلام حتى انتهت الحرب وغنم المشايخ

كل هٰذَا القدر الطائل ولطالما سألتهم الحكومة بعدئذٍ تقديم الحساب ورد الذي لم ينفق من هٰذَا المبلغ فلا قدموا حساباً ولا ردوا جواباً وزادت فتنهم وجرأتهم وزاد ميلهم إِلَى الاستبداد واغتنام الغنائم في الحرب حتى كثرت جناياتهم وزاد تعديهم عن كل حد وقتل اشقياؤهم سبعمائة نفسٍ من النصارى بلا ذنبٍ ولا اثمٍ في عشر سنين ولم تطالب الحكومة بدم هؤلاء القتلى مع ان البلاد لم تكن يومئذٍ في حالة الحرب وهٰذَا هو عدل الحكومة التركيَّة فانها اغضت عن كل قبائح الدروز ومنكراتهم حتى لا تحرم مساعدتهم حين اللزوم وتبقيهم آلةً في يدها يذبحون رعاياها الآمنين في ظلها كلما رأت منهم ميلاً إِلَى التقدم والارتقاء

وكانت نتيجة حرب القرم شؤماً وشراً على بلاد الشام واهلها ذلك ان الاتراك أنفوا من عود بلادهم اليهم على يد الافرنج وخافوا ان يعرف الناس ضعفهم واحسان اوربا اليهم فجعلوا يظلمون ويجورون ويبطشون بكل من عرفوا عنهُ الميل إِلَى الافرنج حتى لا يمتد نفوذهم في بلاد الشام ولا تضيع الديار من قبضتهم . وكان قناصل فرانسا لسوء الحظ يكثرون من المراقبة والتشديد والضغط على الحكام الاتراك من بعد تلك الحرب ويظهرون القوة والاقتدار ويغيظون الحكومة التركيَّة في كل امرٍ حتى ان قنصلهم في بيروت كان يحتم على المسلمين بالوقوف لهُ كما يقفون للوالي عند مرور عربتهِ بهم فاذا لم يقفوا لهُ نزل من العربة وجعل يجلدهم بسوطهِ جلداً ويشتم اعزّ الامور عندهم ويكثر من احتقارهم . وكان الموارنة اعواناً لقناصل الفرنسيس يعاونونهم

على مدّ نفوذهم و يجاهرون بالانتماء إلَى الدولة الفرنساويّة حتى انهم كانوا يملأُون الجبل زينة كلما زارهُ احد قناصل هذه الدولة وجعلوا يقدمون لهُ قضاياهم و يحكمونهُ في امورهم بدل عمال السلطان وصار الموسيو ده لسبس قنصل فرانسا وقتئذٍ في بيروت يستدعي اكابر المسلمين والدروز والنصارى إلَى بيتهِ فيأمر فيهم و ينهي و يحكم في قضاياهم على ما يريد ويهوى و يظهر للناس بكل واسطة انهُ مراقب على حكومة السلطان وان قوة الدولة صارت كلها إلَى قبضتهِ ولطالما القى اناساً في السجن وافرج عن اناس ونقل الارزاق من رجلٍ إلَى خصمهِ وحمي اصغر الخادمين في بيتهِ من الحكام ولو انهُ ارتكب اعظم الجرائم

واتى اموراً مثل هذه هيجت مخاوف الاتراك والمسلمين عموماً اذ ظنّ الناس ان البلاد صارت إلَى قبضة الافرنج واضطرّ الاتراك من جرّاء فعالهِ هذه إلَى الاهتمام اكثر من ذي قبل في تدبير المكائد ودس الدسائس وعمل الطرق اللازمة لخراب الجبل واعادة امورهِ وامور الشام كلها إلَى ايديهم

وتشكلت لجان من المسلمين في بيروت وصيدا ودمشق وحلب واكثر مدائن الشام كان الناس فيها يشكون من ضياع السلطة من يد الدولة الاسلاميّة وصيرورتها إلَى يد الافرنج حتى انهم عزموا عَلَى اعادة مجد الاسلام وعزهِ مهما كلفهم ذلك وعوّلوا عَلَى قلب الحكومة التركيّة اذا كانت هي السبب في وصول الاسلام إلَى تلك الدرجة المنحطة

وظلَّ اعضاء هذه الجمعيَّات يحرّضون المسلمين عَلَى القيام وآكليروس الموارنة وقناصل فرانسا يظهرون ميلهم إِلَى اذلال المسلمين والدروز والاستبداد بالامور حتى سرى روح التعصب الشديد في كل البلاد وجعل الناس يتأهبون في كل مكان للتخلص من سيطرة الافرنج وانفة الموارنة و يعدون النفس بذبح النصارى عن بكرة ابيهم والاستئثار باملاك البلاد بعد انقراضهم

وحدث لسوء الحظ ان قائمقام النصارى في جبل لبنان مات في سنة ١٨٥٧ فأسرع الاتراك إِلَى تعيين جاسوسهم وآلتهم العمياء مكانهُ وهو الامير بشير ابي اللمع الذي سبق ذكرهُ وكان هٰذَا الامير من اول المحرّكين عَلَى قلاقل سنة ١٨٦٠ عملاً بالاوامر السرّية ٱلَّتي كانت ترد اليهِ من الاتراك ولا ينقه معناها

ومات بطريرك الموارنة ايضاً في تلك المدة فعقبهُ آخر لم يعرف آخرة التهوُّر مثل الذي سبقهُ فأعاد الكرَّة عَلَى الدروز وشدد عَلَى اعوانهِ بمقاومتهم ومضادتهم واهاج في صدر قومهِ حب الحرب واستئصال شافة الدروز لانهم كانوا اعداء دينهم واضطهد كل نصراني من غير طائفتهِ حتى انهُ ساعد قومهُ عَلَى اغتصاب كنائس الارثوذكس وتدمير مدارس البروتستانت ولما علم ان البعض يلجأُون إِلَى قناصل انكلترا من ظلمهِ وفي مقدمتهم بعض المشايخ من بيت الخازن شدَّد الوطأَة عليهم وامر بقتل واحدٍ من هذه العائلة الشهيرة مع ذويهِ ونهب اموالهِ

وعمَّ الاعتداء في سنة ١٨٥٨ و ١٨٥٩ بمساعي القائمقام الجديد

ودسائس الاتراك وجهل البطريرك وكان الذين ينتفعون من تداخل انكلترا قد فقدوا ثقتهم برجالها لان القنصل في بيروت لم ينهَ سعيد بك جنبلاط عن قبائحهِ ولان اللورد ستراتفورد ده ردكلف الذي كان سفيراً لانكلترا في الاستانة ويحب خير المسيحيين في بلاد الشام توفي في تلك الاثناء وخلفهُ سفير ضعيف الرأي ميَّال إِلَى عدم التداخل فلم يساعد الذين ظلموا من بيت الخازن بسبب تقرُّبهم من دولتهِ مع انهم اكثروا من الشكوى اليهِ ولا سار على خطة سلفهِ في الدفاع عن المظلومين

وعلى ذلك وقعت بلاد الشام مرَّةً أُخرى في الفوضى وحاول عقلاء المسيحيين جهدهم ان يحركوا خورشيد باشا والي بيروت على ردع الذين كانوا يعيثون في الارض فساداً فما لقوا منهُ غير الاعراض والاصرار على الاضرار بالجبل واهلهِ وبدأُوا يستعدُّون للقتال وقلبهم يحدثهم انهم كانوا على مقربةٍ من الاهوال

وكان والي الشام في تلك الايام واسمهُ احمد باشا من اشد الاتراك كرهاً للعرب والمسيحيين واكثرهم ميلاً إِلَى ذبح الذين على غير رأْيهِ وهو الذي اعطتهُ الدولة التركيَّة الحكم المطلق في ولايتهِ فجعلتهُ مشيراً للعساكر الشاهانيَّة ووالياً مستبدًّا حتى يمكن لهُ ان يقرض النصارى عن آخرهم

وقد كانت معظم الحوادث ٱلَّتي حدثت في سنة ١٨٦٠ بامر هذا الطاغية الظالم واخصها مذابح حاصبيَّا وراشيَّا والبقاع ودمشق الشام وهو الذي كانت الاوامر السريَّة من الباب العالي بيدهِ يوم

جاءت لجنة التحقيق بعد المذابح فامر فؤاد باشا باعدامهِ قبل ان يتمكن من ابراز تلك الاوامر . وكان خورشيد باشا والي بيروت مثلهُ في الرداءة وحب الانتقام من الابرياء
وسوف نشرح فعلهما في الفصل
القادم

obeikandl.com